المتن

القاعدة الخامسة

الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، ومنها الصفات الخبرية، كالوجه، واليدين، والعينين.

الشرح

قد يقول قائلٌ: هذا التقسيم لأهل العلم إنه لم يَرد به نصٌ, فما بالنا نُقسم هذا التقسيم ؟!

وهذا إيرادٌ قوي جداً، ويجاب عنه بأن يُقال : لما وقع الخلاف من أهل الكلام بين مايثبتونه من الصفات وبين ما لا يثبتونه ؛ احتاج أهل السُنة المُتبعون للسلف أن يُقسِموا هذا التقسيم من أجل تحقيق المناط وما يرد فيه الخلاف وما لايرد.

ثم هم يقولون: إذا كانت الصفة لازمة لاتنفك عن الله-عزوجل- فهي صفةٌ ذاتية كالحياة والعلم والقدرة, والسمع, والبصر, والعِزة ، والحِكمة ؛وما أشبه ذلك ، فهذه كلها صفات ذاتية ، وسُميت بذلك للزومها للذات ، ثم قسموها إلى: معنوية وخبرية: فما كان نظيرُ مُسماه أبعاضًا لنا سموه: خبرية ، وماكان دالاً على معنىً سَمَّوْهُ :معنوية، فالسمع مثلاً صفة ذاتية معنوية ، واليد صفة ذاتية خبرية، لايقولون:" معنوية" لأنهم لو قالوا "معنوية" عادوا إلى تأويل الأشاعرة وشبيههم.

والذي جعلهم لايقولون "بعضية" كما نقول : يدنا بعضٌ منا أو جزءٌ منا قالوا:لأننا لايجوز لنا أن نُطلق كلمة "بعض" أو "جزء" على الله-عزوجل- فتحاشَوا هذا بقولهم :

صفات ذاتية خبرية.

لماذا قالوا خبرية؟ قالوا" خبرية" لأنها مُتلقاةٌ من الخبر، فإن عقولنا لاتدلنا على أن لله تعالى يدًا بها يأخذ ويقبض ويبسُطُ، ما تدلُّنا على ذلك، لكن علمناها بمجرد الخبر ، لأن الصفات الذاتية مثل الحياة والعلم والقدرة؛ قد دل عليها العقل ، لكن اليد والوجه والعين لم يدل عليها العقل.

فالصفات الذاتية الخبرية جاءت عن طريق الخبر؛ وليس للعقل دخل في إثباتها أبدًا ، ولهذا لايمكن أن نقول إذا جاز إثبات الساق لله ؛ فلتجز الركبة مثلاً ،ليش. لأن العقل ليس له تدخل في هذا ولا يمكن أن نقول به.

فيجب أن نقتصرفي هذه المسائل على ماجاء به الخبر ونُسميها خبرية؛ ولا نسميها "جزئية" أو"بعضية" لوجوب تحاشي هذا التعبيرفي جانب الله- عزوجل. -

المتن

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا. وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين، كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً. وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء كما في قوله تعالى"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"[يس:82] وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته. وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجزعن إدراكها لكننا نعلم علم اليقين أنه - سبحانه - لا يشاء شيئًا إلا وهو موافق للحكمة ، كما يشير إليه قوله تعالى :"وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"[الإنسان:30].

الشرح

القسم الثاني:"الكلام" عند أهل السُنة والجماعة صفة فعلية باعتبار آحاده ، وصفة ذاتية باعتبار أصله.

فباعتبار أن الله لم يزل ولايزال مُتكلمًا، كما أنه لم يزل ولايزالُ خالِقاً ، فعَّالاً لما يُرِيدُ، بهذا الاعتبار يكون صفةً ذاتية.

وباعتبار آحاده ؛ يكون صفة فعلية. فمثلاً إذا أراد الله أن يخلق شيئاً قال:"كُن فَيَكُون". فهنا إرادتان: إرادة سابقة وإرادة مقارنة. والقول إنما يكون بعد الإرادة المقارنة للفعل. فإذا أراد أن يكون الشيء قال له:"كُن" فبمجرد أن يقول كن ؛ فيكون على وفق ما أراد ؛ولهذا جاءت الفاء"فيكون". أما الإرادة السابقة بأنه سيفعل فهذه سابقة مايقع بعدها قول.لكن الإرادة المقارنة هي التي يقع بعدها القول. فالقول إذن بعد الإرادة.القول: "كن" بعد الإرادة وهذا يدل على حدوث هذه الكلمة ولا لأ؟ نعم يدل على حدوثها؛ وأنها صارت عند إرادة الفعل. كذلك القرآن الكريم فيه آيات واضحة تدل على أن اللهَ تكلم بها بعد وقوع الفعل بعد وقوع المتحدَّث عنه . "وإذ غدوتَ من أهلك تُبوئ المؤمنين مقاعد للقتال"إذ غدوت الغدو سابق على هذا القول ولا لاحق؟ سابق"وإذ غدوت تُبوئ.", "قد سَمِعَ اللهُ قولَ التى تُجادلك في زوجها" فالمسموع سابق ولا لأ؟ سابق, إذن فهذا القول صار بعده وعلى هذا فقِس.

فكلام الله-عزوجل-باعتبارآحاده صفة فعلية؛ وباعتبار أصله وأنه صفة الله-عزوجل-لم يزل ولايزال مُتصفًا به :صفةٌ ذاتية: هذا هو تقسيم أهل السُنة والجماعة في تقسيم كلام الله.

أما الأشاعرة والماتُريدية ومن على شاكلتهم ، والكُلاَّبية ونحوهم، قالوا: إن الكلام صفة

ذاتية فقط ، لأنهم يجعلون الكلام هو المعنى القائم بالنفس ، وأن هذا المسموع شيءٌ مخلوق خلقه الله تعالى ليُعبر عما في نفسه؛ فكان على مذهبهم الكلام صفة ذاتية.

ولكن ما ذكره السلف هو الحق المُطابق للمعنى اللُّغوي والعقلي، وأن الله-عزوجل- يتكلم-سبحانه وتعالى- متى شاء وبما شاء وكيف شاء، فلهذا نقول: إنه صفة ذاتية باعتبار وفعلية باعتبار آخر.

فإذا قالوا: كون الكلام صفة ذاتية وفعلية فهذا جمع بين الضدين؟ قلنا: مادامت الجهة مُنفكة فلا تناقض، فالسجود مثلا قد يكون شركا وقد يكون طاعة ،وذلك باعتبارين، فإن كان لله كان طاعة وإن كان لغير الله كان شركاً.